«مقهى الصعاليك»

بيت المثقفين الفلسطينيين

محمد سليمان *

ربما كان سر أبدية الحياة أن كل شيء فيها متراصف ومتقاطع، وأن ديناميتها السرمدية مستمدة من لا محدودية أهليتها في التفاعل والتواصل. فالقديم جد الجديد قبل أن يكون أبيه. والجديد حفيد القديم قبل أن يكون ابنه. والمعضلة الحقيقية في كل هذا أن تعترف الحواضر بشرف نسبها إلى الأوابد، وإذا كانت واهنة الصلة به أن تبحث عن الحبل السري الذي يربط بينهما، وإذا كانت واثقة من قرابتها له أن تبحث عن وشائج اتصال هذه القربى وأواصر ديمومتها بما يراكم ثخونة جذر النسب فيجعل منه (قرمية) راسخة في أرض خصبة، مشرئبة الأغصان والفروع النضرة التي لا تعبر إلا إلى السمو امتداداً وتطلعاً، فتبقي على دم حياتنا حاراً متدفقاً ينساب في أوردة ترفض الدم المتخثر، فتوصل إلى ديمومتنا الدفء، وتظل صيرورتنا دفيئة توفر مناخ نمو الحياة الفلسطينية في كل الأزمنة والعصور.

سمعت عن «مقهى الصعاليك» في القدس، وذكر لي أنه هو «بيت المثقفين الفلسطينيين» خلال العهدين التركي والبريطاني، فتأكد لي بشكل أكثر أن مثقفي ذلك الزمن أعمق أصالة من مثقفي هذه الأيام الذين هم عاجزون عن أن يكون لهم «مغارة».

قررت التعرف على بيت المثقفين الفلسطينيين وتدوين ما أستطيع الحصول عليه من معلومات عنه كمساهمة في التعريف بأحد جوانب حياتنا الثقافية ورسم بورتريه لأحد معالم تشكلها المعاصر.

عزفت عن فكرة استدعاء التاريخ وآثرت تفضيل الذهاب إليه، والحديث من واقع المكان مع عمق الزمان عن خبر الإنسان. وكان ذلك، وكنت في عين المكان.

أنه مقهى صعاليك! ولكن هل المثقفون هم الصعاليك؟

المثقفون رواد حركة النهضة ورجال الإصلاح والمؤسسون لثقافتنا وحياتنا المعاصرة. وهم طليعة الأمة ونخبتها وعليتها فكيف بهم «صعاليك» كما يسمون أنفسهم ولا يأبهون لذلك؟! وكيف هو «مقهى الصعاليك» يسمى أيضاً «بيت المثقفين الفلسطينيين»؟!

إنها تضادية شكلانية في اللفظ، وربما كانت توافقية في المضمون، أو لم يكن «ابن السلكة» من أشعر الشعراء، ومع ذلك فقد كان صعلوكاً؟!

يقول المحامي إبراهيم قندلفت في رسالة بعث بها إليّ بتاريخ ٢٠٠١/٩/٩: كنت في الستينيات أعمل في الصحافة كمندوب خاص في القدس لجريدة البلاد التي كان يصدرها عبد الله العيسى. وقد زرت المقهى وكتبت تحقيقاً عنه ونشرته الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ تشرين الأول ١٩٦٠، ومما جاء فيه: «في القدس مقهى عريق في قدمه وفريد في نوعه ووجوه زواره، ويقع ملاصقاً لسور المدينة عند باب الخليل. ويخيم عليه دائماً جو خيالي شاعري».

كان الندوة المفتوحة للصحافيين والشعراء والمثقفين، وقد تأسس في العام ١٩١٧، وكان ملتقى الأدباء والمثقفين وضيوفهم. وقد أطلق عليه الأديب الكبير خليل السكاكيني اسم «مقهى الصعاليك»، وقد ذكر ذلك في كتابه «كذا أنا يا دنيا».

كان الصعاليك هم مجموعة مثقفي البلاد الذين كان يطلق عليهم السكاكيني لقب «الشلة»، مثل إسعاف النشاشيبي، وخليل بيدس، ويوسف العيسى، ونجيب نصار، وإيليا زكا وغيرهم، وكان من فكاهياته على هذا الصعيد أنه وضع دستوراً لهم أسماه «دستور الصعاليك»، وقد حدد بموجبه شروط عضوية الشلة التي يجب توفرها في المتقدم للحصول عليها. وكان من بينها أن لا يطلبوا لغيرهم طلبات إلا إذا كانوا ضيوفهم، وأن لا يقبلوا تضييف أحد لهم. وكان من شروط العضوية أن يقبل الأعضاء الجدد على طريقة جلوس الشلة في المقهى والموافقة على أساليب أحاديثهم ونكاتهم وطرائفهم والمشاركة في شرب النارجيلة».

وتقول المراجع التاريخية أن الشهرة الخارجية التي كان يتمتع بها المقهى جعلت منه عنواناً لتراسل الأدباء والمثقفين العرب مع نظرائهم الفلسطينيين، وبخاصة بواسطة الحجيج الذين كانوا يجلبون معهم بعض الجرائد والمجلات والكتب الثقافية والأدبية من البلدان العربية، وكذلك أخبار الأدباء والأدب في المدن التي قدموا منها.

ويقول يعقوب يهوشع في كتابه «الصحافة العربية في فلسطين» أن مقهى الصعاليك كان المضافة التي يستقبل فيها الأديب خليل السكاكيني ضيوفه. وكان إذا أتاه ضيف لا يأخذه إلى بيته، وإنما «يجُرّه» إلى مكان بعينه في المقهى، حيث يجلس الضيف مع الشلة فيتعرف على من لا يعرفه منهم ويتعرفون عليه. وقد كان هذا الأمر لا ينطبق على ضيوف السكاكيني من الفلسطينيين فحسب، وإنما من العرب أيضاً. وقد ذكر أنه قد استضاف عدداً كبيراً منهم فيه، وكان من بينهم: أحمد زكي باشا، وخليل مطران، ومعروف الرصافي، وغيرهم.

ذهبت إلى حارة النصارى في القدس، وقد قررت أن استطلع حال المكان في راهنية الزمان، وأن أبحث عن تفاصيله من عيانيته لأطابقها مع تلك المشتمل عليها في البورتريه المتخيلة لهذا المكان.

التقيت صاحب المقهى الجديد أبو عيسى وهو غير أبو ميشيل المختار عيسى الصلة برغم أن الأول هو ابن الثاني، وأن كلاً منهما هو صاحب مقهى ومختار الطائفة الأرثوذكسية في القدس. وأما المكان فيبدو أنه لا زال على ما يذكر عنه من وصف له سوى ازدياده قدماً «وتعتقاً» يقيه من بلوغ الشيخوخة.

سرت في ردهات المكان وأركانه، وعلى الرغم من اكتظاظه بالناس، فأنني لم أرَ أحداً منهم أيهم لم يكن من «الشلة»، ولأن صورة السكاكيني كانت تنتصب أمامي في كل قرنة وزاوية «تؤنبكم» من خلالي وتؤنبني أيضاً.

على عتبة الباب تخيلته بل رأيته يميل طربوشه الأحمر إلى اليمين ويمشي بخيلاء ويُدكّ بقدميه الأرض كما لو أنه في عرض عسكري، ويمسك بيده اليمنى مسبحة صفراء وينهرني قائلاً: إلى أين؟! فأجيبه: إلى محراب ذكراك. فيهز برأسه ويقول ساخراً: بعد كل هذه السنين من النسيان والجحود. حرام عليكم أيها الأبناء والأحفاد، أيتها البنات والحفيدات من مثقفي ومثقفات فلسطين. لن يكون لكم تاريخ بدوننا.

أحاول أن أتدخل مذكراً بأن آثاره قد جمعت وقد كرّم بأكثر من طريقة فيزمجر غاضباً: وماذا عن الآخرين. وهل هذا يكفي؟! لا تكتمل الذاكرة إلا بذكر المكان، ولا يتأصل التاريخ إلا بانتسابه للمكان.

لقد شعرت أنني أقف قرب المذبح، وكانت أصوات الشلة تنبعث كتراتيل من الزوايا والمنحنيات تستغفر للسياسة وتصلي للثقافة. والأمة ستبقى حية ما لم تُقرّط في ثقافتها.

تحت وطأة الإحساس الرومانسي الذي تملكني، مَيزت من هو صاحب المقهى متري عيسى الطبة، «فتحركشت» به ممنياً النفس بأن لا يبخل عليّ بذكريات المكان. ولكن المختار قلب خلقته وقطّب حاجبيه، وقال: إيش بدك... شو. أنا مش فاضي. ولم يشفِ غليلي في شيء مما أريد.

لقد فجعتني الوقائع عندما وجدت أنه لا يعرف المكان أحد بين المنتسبين إلى الطبقة الثقافية في البلاد، وذلك لأسباب تتصل بالتصاقهم بالنص، واغتراب النص عن الإطار المكاني له.

لقد أكدت لي المتابعات أن عدم الاكتراث بأهمية المكان ودوره الثقافي من قبل البعض، وكذلك التقييم القاصر للبعض الآخر قد ألحق غبَشاً بسمعة المكان ومكانته الثقافية، ولكنها لم تفقده أهليته كمنتدى للصحافيين وكبيت للمثقفين الفلسطينيين، وكملتقى تخرج منه الشعراء والأدباء والوزراء والقيادات السياسية والأدبية والحقوقية والاجتماعية ورجال الحكومة وقادة الأحزاب والمنظمات النقابية والمهنية.

و«مقهى الصعاليك» الذي يحتل زخم الحضور ولكن في بواطن الكتب وبعض الصدور، هو مهدد بالموات وفق أية كيفية سيؤول إليها، فهل أدركت المستويات المسؤولة في القدس الفلسطينية أن في ذلك احتقاراً لتاريخ انطلاقة الثقافة الفلسطينية واستمرارية ديمومتها، وهذه الثقافة لا تستحق ذلك أبداً وأن المسؤولية تستدعي التدخل لترميم اعتبارية المكان وصون مكانته كأحد المعالم الثقافية وبصفته «بيت المثقفين الفلسطينيين»، فهل أضطلع الناس بمسؤولياتهم؟!

* كاتب وباحث فلسطيني

تقرير التنمية الإنسانية العربية

أين نحن من أزمة المعرفة في ال

خالد اصليح *

يبني تقرير التنمية الإنسانية العربية في عدده الثاني الذي صدر مؤخراً عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي على نتائج التقرير الأول الذي صدر صيف العام الماضي. وكان التقرير السابق قد أشار إلى وجود ثلاث نواقص أعاقت المسيرة التنموية في العالم العربي، وتمثلت في النقص في الحريات، وتمكين المرأة، والمعرفة، ما كان له آثار خطيرة على الأداء الاقتصادي في العالم العربي مقارنة مع الدول والمناطق الأخرى في العالم. أورد التقرير أن المواطن العربي يحتاج إلى ١٤٠ سنة ليضاعف دخله، بينما المواطن في مناطق أخرى مثل شرق آسيا أو الصين يضاعف دخله في غضون عشرة أعوام. ويتوقع لهذه الفجوة الاستمرار في التصاعد في ضوء التدهور المستمر في الإنتاجية، ولا سيما إنتاجية العامل. ومن جانب آخر، فإن إجمالي الناتج المحلي للبلدان العربية مجتمعة مع نهاية القرن الماضي لم يتجاوز حوالي ٦٠٤ بلايين دولار، ليبقى عند مستوى الناتج المحلي لدولة مثل أسبانيا مع فارق طفيف.

ومن مجمل الحقائق التي أوردها التقرير في شرحه لأبعاد هذه النواقص أننا في المنطقة العربية الأقل حرية والأكثر تخلفاً من ناحية المشاركة السياسية مقارنة مع المناطق الأخرى في العالم. أما بالنسبة لواقع المرأة عندنا، فقد كشف التقرير أن النساء العربيات لا يشغلن أكثر من ٥,٣ في المائة من مقاعد البرلمانات، مقابل ١١ في المائة للنساء في أفريقيا، و١٢ في المائة في أمريكا اللاتينية، وتبقى نسبة الأمية بين النساء العربيات (٥٠ في المائة) هي الأعلى في العالم، ما أدى إلى حد كبير في تأنيث الأمية والبطالة والفقر.

أما واقع المعرفة في المنطقة العربية فقد جاء في ذيل القائمة قياساً على العالم كله. ويؤكد واضعو التقرير أن «نسبة انتشار أجهزة الحاسوب الشخصية ٢,١ في المائة فقط، ونسبة مستخدمي الإنترنت في العالم العربي تصل ٦,٠ في المائة. أما الاستثمار في البحث العلمي، فيصل إلى ٥,٠ في المائة من الناتج القومي الإجمالي، أي أقل من ربع المتوسط العالمي». والاستثمار السنوي في التربية والتعليم يصل إلى مائة دولار للفرد مقارنة مع ألف دولار للفرد في الغرب. ويبين التقرير أن نسبة الاستثمار في التربية والتعليم قد تراجعت من ٢٠ في المائة في الثمانينيات إلى ١٠ في المائة فقط في العام ٢٠٠٠.

واقع المعرفة في العالم العربي

تضمن التقرير الجديد تحليلاً مفصلاً لواقع المعرفة في هذه البلدان، فاستعرض واضعو التقرير وسائل إنتاج المعرفة، ومجالات استخدامها وطرق نشرها. وختم فريق الباحثين العرب الذين قاموا بإعداد التقرير بتقديم استراتيجية جديدة من أجل بناء مجتمع معرفي في العالم العربي يقوم على حرية التعبير والحكم الصالح ونشر التعليم وتوطين العلم والبحث العلمي والانتقال من استهلاك المعرفة واستيرادها إلى إنتاجها وتعريبها. وينوى معدو التقرير الدوري استعراض النواقص التنموية الأخرى في تقاريرهم المقبلة.

يعرف التقرير الثاني مجتمع المعرفة بأنه «ذلك المجتمع الذي يقوم أساساً على نشر المعرفة وإنتاجها، وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد والمجتمع المدني والسياسة، والحياة الخاصة، وصولاً للارتقاء بالحالة الإنسانية باطراد، أي إقامة التنمية الإنسانية. ومن وجهة نظر واضعي التق «أصبحت المعرفة وبصورة متزايدة، مح للتحولات الاقتصادية والاجتماعية. وثم قوية بين اكتساب المعرفة والقدرة الإ للمجتمع. وتتضح هذه الصلة بأجلى ص الأنشطة الإنتاجية ذات القيمة المضافة الع تقوم على الكثافة المعرفية العالية، وتحدد الدولة على المستوى العالمي.»

ومن أجل بيان حال المعرفة في المنطقة أمعن التقرير النظر في نشر المعرفة وإ وأورد في التقرير أن عمليات نشر المعرفة ق بأشكالها المختلفة (التنشئة والإعلام وا تواجه صعوبات عدة من أهمها قصور ا والتضييق عليها، وبالتالي عجزها عن تهـ المناسب لإنتاج المعرفة. تشير الدراسا أكثر أساليب التنشئة انتشاراً في الأسر هي أساليب التذبذب والتسلط والحماية ما يؤثر على نمو الاستقلال والثقة بالنفس الاجتماعية. أما وسائط التربية والتعليم ضعيفة وغير عصرية لعدم توفر ر لتطويرها، ما يؤدي إلى عدم حماس الطا تعليمهم، وبالتالي تراجع الإنتاج المعرفي

أما فيما يتعلق بوسائل الإعلام كوس للمعرفة وجد التقرير أنها لا تزال تعاني مو والقصور، على الرغم من الحركة الواع الحياة الإعلامية بعد ظهور القنوات الفض شجعت الحوار والنقاش، وصارت منابر الرأي العام القائم على التعددية. فعدد في البلدان العربية يقل عن ٥٣ لكل ٠٠٠ مقارنة مع ٢٥٨ صحيفة لكل ١٠٠٠ مـ البلدان المتقدمة، علاوة على ذلك لا تزال الصحافية تتعرض لانتهاكات واضحة، لا المتعلقة بالراديو والتلفزيون.

أما الترجمة في البلدان العربية فلا تز بالركود والفوضى. إذ تشير الإحصاءات أن متوسط الكتب المترجمة بلغ ٤,٤ كتاب ل من السكان في الوطن العربي، مقابل ٥١٩ المجر و٤٢٠ كتاباً في أسبانيا لكل مليون مـ

ومن جانب آخر، شرح واضعو التقرير ركود إنتاج المعرفة في مجالاتها المتعددة، البحث العلمي، إذ يشكو البحث العلمي في مجالات البحث الأساسي، وشبه ع الحقول المتقدمة مثل تقنية المعلومات وال الجزئية، ويعاني البحث في المنطقة العـ غياب الدعم المؤسسي له، إذ لا يتجاوز إنف على البحث العلمي ٢ في المائة، ويدفع أغل وأجوراً. إضافة إلى ذلك، يعاني البحث من انخفاض أعداد العاملين فيه؛ فلا ب العلماء والمهندسين العاملين في هذا المـ ٣٧١ لكل مليون من السكان مقارنة مع متو يبلغ ٩٧٩ لكل مليون. وأورد التقرير حوالي ١٥٠٠٠ طبيب قد هاجروا من العال

فلسطين على خارطة المعرفة العربية

أما حال نشر المعرفة وإنتاجها في مـ الفلسطيني، فهو ليس بأحسن حال من د العالم العربي. فالتنشئة عندنا امتداد لتلك في المجتمعات العربية، والتي كما أسلفنا التردد والقمع والحماية الزائدة التي تكو سلبية واضحة في قدرة الأبناء على تعز بأنفسهم. ناهيك عن قمع الاحتلال الإسر يترك من آثار سلبية في تكوين شخصية القادمة. أما وسائل الإعلام الفلسطينية، الحد الأدنى من دورها المطلوب، فلا تقد